إبراهيم باشا على عرش مصر

كان إبراهيم باشا طيلة حياته مولعًا بالحروب، ولا يكترث كثيرًا بحياته التي جعلها هدفًا للمخاطر بشجاعة بلغت حد المجازفة، ولا يطيب نفسًا إلا في جو العمل والنشاط والحركة، وقد استاء كثيرًا من مواقف الغرب خاصةً منذ أن أجبرته السياسة على أن يوقف زحفه بعد معركة قونية، وقد التقى في ذلك الوقت بالبارون بوالكونت فقال له:

- إنه ليؤلمني أن الدول منعتني من متابعة الزحف..

- إني أظن بالعكس، إنه قد آن الوقت الذي يحق فيه للدول أن تفكر في وقف سموكم عن الزحف، فإنه لم يكن أمامكم سوى بضع خطوات لتصل الجنود المصرية إلى أسكدار، وهنالك تشب الثورة في الأستانة!

- ولكني كنت شديد الرغبة في دخول الأستانة على رأس جيشي!

- وماذا تقصدون سموكم من الذهاب إلى الأستانة؟ وماذا كنتم صانعين بها؟

- ما كنت أدخلها للهدم بل للإصلاح، ولكي أُقيم حكومة صالحة مؤلفة من رجال أكفاء، بدلا من الحكومة الحالية العاجزة عن الاضطلاع بحكم الإمبراطورية.

- إن سموكم يؤكد بحديثه المخاوف التي ألمعت إليها في كلامي، فإن ما كنتم تنوون إحداثه هو ما كنا نعمل على منعه، لا، لأننا مسوقون بفكرة عدائية نحو سموكم أو نحو أبيكم، ولكن لأن الانقلاب الذي كنتم عازمين على إحداثه في الأستانة يُفضي إلى مشكلات قد تُشعل نار الحرب في أوروبا بأسرها.

- إنك واهم فيما تظن، فإن هذا الانقلاب كان يحدث دون أية مقاومة، فإن السكان على جانبي البوسفور والدردنيل يطلبونني لإحداث الانقلاب الذي يتم في هدوء وسرعة دون أن تجدوا الوقت للشعور بوقوعه، تقولون إنكم تبغون الدفاع عن كيان الدولة العثمانية وجعلها قوية، ولو تم هذا الانقلاب لكان من نتائجه بعث سلطنة قوية، تقوم على أنقاض هذه السلطنة المفككة التي تحاولون عبثًا تأييدها، والتي ستنحل يومًا ما بين أيديكم وتسبب لكم وقتئذ مشكلات لا عداد لها.

وهنا سكت إبراهيم باشا قليلًا عن الكلام، كأنما استوقفته فكرة طارئة ثم قال: إنني أبحث كثيرًا وأتساءل، لماذا تحقد الدول الأوروبية كل هذا الحقد على الأمم الإسلامية؟

- إني لم أفهم كلام سموكم!

- نعم، فإنك تقول الآن أن وصول جيشي إلى أسكدار يُحدث ثورة في الأستانة، وإني أوافقكم وأرى رأيكم، ولكن أليس هذا دليلًا على أن الأمة

الإسلامية لا تريد حكم السلطان محمود؟ فبأي حق ترغمون هذه الأمة على ما لا تريده، وهل يحق لكم معشر الفرنسيين أن تمنعوها من اختيار حكامها؟ عجبًا! لقد كنتم حينما ثار البلجيكيون وطلبوا تأليف مملكة مستقلة، وحينما قام اليونانيون يطالبون باستقلالهم، تنادون بأن لكل أمة الحق في اختيار ولي أمرها ونظام الحكم الذي تبتغيه، بل إنكم ساعدتم اليونانيين في ثورتهم، فلماذا تحرمون الأمة التركية من هذا الحق؟!

وكان إبراهيم باشا يلقي حديثه هذا في حماسة وذكاء، ويمزج الأدلة القوية بشيء من الفكاهة والدعابة، واستمر الحوار دون أن يقتنع أحدهما برأي الآخر.

والآن أصبح إبراهيم على عرش مصر، ولكن بعد أن فقدت كل ثمار جهوده وحروبه الناجحة، ولكنه لم يستمر في الحكم طويلًا إذ وافته المنية في العاشر من نوفمبر سنة ١٨٤٨ ووالده على قيد الحياة، فتولى الحكم عباس باشا الأول ابن طوسون باشا ابن محمد علي، إذ كان أكبر سنًا من عمه سعيد باشا بن محمد علي باشا، ولنترك عباس باشا يحكم مصر، ونعود إلى قصر رأس التين حيث يعيش محمد علي باشا الفترة الأخيرة من حياته شاردًا لا يدري ما يدور حوله، ولا يلتقي إلا بجليسه لاظ بك، والذي ترقى إلى رتبة باشا منذ زمن طويل، ولكنه لم يُلفت نظر محمد علي باشا إلى تلك الحقيقة؛ ففي حياته باشا واحد فقط.